

القسم الثاني

# التصوف الإسلامي

تطوره، ملامحه، أبرز الأفكار والحقائق

النفس والوجود



## التصور والخطوة لهذه الدراسة

بعد أن فرغنا من الزهد الإسلامي وما يتعلق به نتقل إلى الطور الثاني من أطوار الحياة الروحية في الإسلام الذي عرف باسم التصوف وأطلق على رجاله اسم الصوفية، وقد طبعت هذه الحياة بخصائص وبرزت فيها أفكار، واستخدمت لها لغة لم تكن عند الزهاد. تمثل ما كانت عليه عند الصوفية، ولذا كانت مثاراً للجدل والنقاش بين المؤيدين والمعارضين.

وبادئ ذي بدء يجب علينا أن نضع في اعتبارنا أن الدارس لما عليه الصوفية، والذي يرتاد مجالسهم وخلواتهم بقصد الاستفادة السلوكية، أو بقصد الدراسة المجردة لا بد وأن يتلمس باباً صحيحاً وأن يدخل عليهم برفق وأدب وبيقظة ووعي كاملين، وأن يتسلح بسلاح العلم الإسلامي والسعة فيه، وأن يكون متهيئاً عند كل خطوة بخطوها حتى لا تزل قدمه أو يضل فكره، سواء كان هذا التهيب نابغاً من الأدب اللائق بالصادقين من رجال الطريق، أو كان مقصوداً من وراء خطة موضوعة لدراسة مظاهر القوم وحقائقهم وأذواقهم تلكم الموضوعات التي يفسدها التجرؤ عليها، ويقلل سوء الأدب من درجة الوقوف على أسرارها.

وبجانب هذا فإننا لا نستطيع أن نفحص في أعماقهم ابتداء بل علينا أن نتبع في ذلك نفس الآداب المرعية في ديارهم، فكما أن الطالب للحرقة لا يقذف نفسه بين صفوف المريدين فجأة، ولا يمد يده إلى الشيخ من أول وهلة، ولا يطلعه الأستاذ على بعض الأسرار بمجرد وصوله، ولكن يمر بمرحلة الخدمة التي يلزم فيها الباب ثم الصحبة ثم الإرادة، فكذلك الدارس لا يجوز له أن يقتحم الحقائق حتى يبدأ أولاً من باب الرسوم.

والطالب أو الباحث أشبه بالغواص الذي يتحتم عليه أن يتخير مكان التزول إلى الخضم وهو ما زال واقفاً على الشاطئ، ثم بعد ذلك يشق سطح العباب إلى

العمق، ومستحيل أن يعرف القاع قبل أن يمر على اللجة الظاهرة، ومن هنا كان من الضروري خطة، ومن المنطقي تصوراً أن نبدأ من الرسوم والأشكال باعتبارها الباب الأول الذي يُصادف القادمين إلى هذه المنازل.

والشكل الذي يتراءى أمام أعين الناظرين، والمظهر البارز الذي يخطف اللب سريعاً، وهو بدء لا يمكن تجاهله في أي فرع من فروع الدراسات العلمية التي تقتضي بأن يبدأ الإنسان من الأمر الظاهر متنقلاً إلى ما وراءه.

ثم إذا انتهينا من المظاهر عمدنا إلى الملامح الهامة والأصيلة التي تُضيء لنا الطريق بعد ما نترل إلى الرقائق والدقائق، ونقف مع النفوس الصافية أثناء عروجها وتساميتها، وأظهر تلك الملامح ما نشاهده في المنهج والمصطلحات إذ الوقوف عليهما بمثابة الركائز الأساسية التي يلزم الاستناد عليها لمن أراد أن يدنو من النظرات والأذواق، أو يكتشف النفس في عمق شعورها ووجودها، ومواجيدها، وهذا هو ما أملاه عليّ تصوري، واستعملته كخطة ألتمها في هذه الدراسة من القسم الثاني.

## **الباب الثالث**

**الرسم، والاسم، والتحول**



## طبيعة المحاولة

نقدم بين يدي الباحثين بعض النقاط التي هي بمثابة المدخل لهذه الدراسة كمسألة الزبي الذي يرتديه رجال الحركة الروحية والذي غلب على أبدان الصوفية وبدا رسماً لهم، وكاشتقاق الكلمة، ومتى ظهرت التسمية إلى غيرها من النقاط الضرورية التي تسبق -عادة- البحث في موضوع التصوف مع علمنا بأنه لم يحف مداد العلماء عن الخوض في هذه المسائل خاصة مسألة الاشتقاق التي لم يقطع فيها إلى يومنا هذا برأي.

ولا أدعي أن محاولتي هنا ستبتر التراع بترًا لتصل إلى جوهر المشكلة الفريدة، أو تضع أمام الدارسين مفتاح الحل الوحيد، وإنما هي ترجيح يقترب كثيراً من حد القطع بصحة ما نذهب إليه، وتهافت ما سواه مدعين ذلك بالأدلة النقليّة، واللغوية، والعقلية، والحوادث التاريخية.

ولا حرج في تكرار المحاولات واستمرارها في موضوع ذي مغاليق، أو نقطة لها وجهات متعددة طالما أن كل باحث يدلي فيها برأي جديد، أو يحاول أن يفك بعض المصاعب، أو يدنو من الصواب، أو يتكر في طريقة العرض وكيفية العلاج، بالإضافة إلى أن القضايا العلمية سواء منها ما كان نظرياً أو تجريبياً لا تعرف الكلمة الأخيرة التي توصل الباب في وجه دارسيها وطلابها، من أجل ذلك جعلنا الباب الثالث موضوع هذه الدراسة المتعلقة بالثياب، والاسم وزمن ظهوره، والسلاسل الجيدة التي عبر عليها الزهد إلى التصوف.

## الفصل الأول

### الرسم

إنما قدمت الحديث عن الزي لكونه أسبق من ذبوع الاسم وإطلاقه، ولا اعتماد الاشتقاق عليه في إظهار كلمة صوفي، ومن الضروري لكي يتضح موضوع الثياب الذي اختاره رجال القوم بكل اتجاهاتهم أن نحوطه بشيء من التوسع وبتتبع لنصوص القرآن والسنة، ولأحوال الصحابة ومن تلاهم، ثم الصوفية، وعندما نقوم بهذه الجولة تتضح أمامنا وجهتان:

الأولى: تؤثر الغليظ والخشن.

والثانية: تحث على الرقيق والتمتع بزينة اللباس.

وللأولى أنصارها، وللثانية دعاؤها وسنقف عند كل منهما، ثم نحاول التعمق في أسرار التشريع وما هدف إليه رجال كل من النظرتين.

### الوجهة الأولى

يرى أرباب هذه النظرة أن لبس الصوف هو مظهر التخشن والتقشف ويحتجون:

(أ) بما ورد في القرآن من إشارات إليه كقوله سبحانه: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّدَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤].

وقوله: ﴿بَلَىٰ ۗ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آفَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥]. أي: علمت خيولهم على النواصي والأذنان بالصفوف وبه قال ابن عباس ومجاهد بن جبير، وذكر البخاري أنه كانت سيما الملائكة يوم بدر، وورد في أحد وجوه تفسير

قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢١]. أنه لباس الصوف لكونه مما يتواضع به لله تعالى، وهو خير في هذا من غيره وإن حصلت التقوى مع لبس الرفيع، كما جعله الله في عداد النعم التي أنعم بها على عباده قال جل شأنه: ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [الحل: ٥]. وعلق أبو بكر بن العربي على هذه الآيات فقال: وهو شعار المتقين، ولباس الصالحين وشارة الصحابة والتابعين، واختيار الزهاد والعارفين. وصرح القرطبي بأن الآيات دليل على لباس الصوف<sup>(١)</sup>.

(ب) واتفقت كلمة الكثيرين كالسراج والكلاباذي والسهورودي والقرطبي على الاحتجاج بما ورد عن الأنبياء من ارتدائهم الصوف إذ حَدَّثَنَا الرسول قائلًا: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى يُونُسَ عَلَى نَاقَةٍ جَمْرَاءَ عَلَيْهِ جَبَّةٌ صُوفٌ»<sup>(٢)</sup>.

وَأَخْبَرَنَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أَنَّ مُوسَى يَوْمَ أَنْ كَلَّمَ اللَّهُ كَانَ عَلَيْهِ جَبَّةٌ صُوفٌ وَسِرَاوِيلٌ صُوفٌ وَكِسَاءٌ صُوفٌ وَكَمَّهُ مِنْ صُوفٍ.

وَكَانَ عَيْسَى يَلْبَسُ الصُّوفَ وَالشَّعْرَ، وَرَوَى عُرْوَةُ بْنُ الْمَعْبُورِ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَطَلَبَ مَاءً لِيَتَوَضَّأَ فَأَفْرَغَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْإِدَاوَةِ، فَغَسَلَ وَجْهَهُ وَعَلِيهِ جَبَّةٌ مِنْ صُوفٍ، وَمَنْ الْمَعْلُومُ أَنَّهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ رَفِضَ ثَوْبًا مَرْبَعًا فِيهِ أَعْلَامٌ، وَطَلَبَ أَنْبِجَانِيَّةً، وَهِيَ كِسَاءٌ سَدَاهُ قَطْنٌ وَلِحْمَتُهُ مِنْ صُوفٍ.

ولما جذبه الأعرابي طالبًا من مال الله كَانَ النبي يلبس رداءً نجرانيًا غليظ الحاشية، وروت السيدة عائشة، أن رسول الله خرج عليهم ذات غداة، وعليه مرط مرح من شعر أسود، وأحيانًا كثيرة كَانَ يلبس شملتين بيضاويتين من صوف

(١) تفسير القرطبي، ١٤٣٩، ٢٦٢٠، ٣٦٨٦.

(٢) صحيح مسلم، ج ١، ٤٠٦، باب الإسراء.

وتسميان حلة<sup>(١)</sup>.

وأخرج البزار في مسنده عن جابر بن سليم قال: ركبْتُ قعودي ثم أتيت مكة فطلبتُ رسول الله فإذا هو جالس عليه برد من صوف<sup>(٢)</sup>. وجاء في فتح الكبير أن النبي ﷺ قال: «عليكم بلباس الصوف تجدوا حلوة الإيمان في قلوبكم»<sup>(٣)</sup>.

وقبض رسول الله في إزار غليظ مما يصنع باليمن وفي كساء من التسي يسمونها الملبد، كما أقسمت على ذلك السيدة عائشة لأبي بردة<sup>(٤)</sup>.

ويبدو أن النبي كَانَ يفضل الثياب المتواضع حيث يروي الترمذي والحاكم أنه قَالَ لأم المؤمنين عائشة: «إن أردت اللحوق بي فأياك ومُجالسة الأغنياء ولا ترعي ثوبًا حتَّى ترقيه»، وكسا الرسول عقبة السلمية خيشتين<sup>(٥)</sup>، وروى أبو داود، وابن ماجه، من حديث أبي أمامة أن نبي الله قَالَ: «البذاذة من الإيمان»<sup>(٦)</sup>. والبذاذة هي الدون من اللباس.

وهذه الأحاديث كما رأينا رواها البخاري ومسلم وأبو داود وغيرهم وجاء فيها ما يدل على تعمد النبي ﷺ للباس الصوف، وعلى فضل هذا الزي وأنه ثياب الصالحين والطلابين لرضوان الله ومغفرته، وفيها كما يقول الإمام النووي ما

(١) مسلم، ج ١، ٥٦٢، ٢، ١٩١، ج ٢، ٩٤، ج ٤، ٧٩٠.

(٢) القرطبي في التفسير، ٢٧٨١، نقلاً عن مسند البزار.

(٣) تحفة السفرة لابن عربي نقلاً عن فتح الكبير ج ٢، ٢٤٣.

(٤) البخاري في صحيحه شرح القسطلاني، ج ٤، ١٠١.

(٥) التاج، ج ٣، ١٥٤.

(٦) عين العلم، ج ٢، ٥٠.

يُشير صراحةً إلى ما كَانَ عليه النبي من الزهادة في الدنيا والإعراض عن متاعها وملاذها وشهواتها وفاخر لباسها ونحوه..، وفيها النذب للاقتداء برسول الله ﷺ في هذا وغيره<sup>(١)</sup>.

وبما ما يكفي للرد على ابن جرير الطبري في تخطئة من لبس الشعر والصفوف مع القدرة على لباس القطن والكتان؛ لأن الرسول صلوات الله عليه -بلغ الثوب الرقيق وطلب الغليظ، وكان في جل أوقاته قادراً على لبس القطن والكتان ومع ذلك تركهما ولبس الخشن.

وتُفيد الأحاديث بسندها الحسن أن النبي أذن صراحةً في لبس الصفوف، ونطق تضميناً ولفظاً بفضله مما يدحض اتهام ابن الجوزي لأحاديث فضل لبس الصفوف بالوضع والتي لا يثبت منها شيء، وأنه قد اختلط الصحيح منها بالخطأ بحيث يصعب التمييز بينها بموازين علم الحديث حتى على أهل هذا الفن<sup>(٢)</sup>.

ويلزم من اعترافه بثبوت ما روي في لبس الرسول للصفوف إثبات الفضل إذ لولا فضله ما لبسه المعصوم صلوات الله عليه، كما تحمل هذه الأخبار المروية بأسلوبها وطرائقها وتنوعها رداً قوياً على زعم ابن الجوزي والقسطلاني أن لبس الغليظ والصفوف والخشن كَانَ اتفاقاً لا عن قصد.

فلا يعقل أن يكون خلع كساء فيه أعلام واستبداله بأبجائية اتفاقاً، ويكون نصحه للسيدة عائشة بالمرقع وكساؤه لعقبة خيشتين عن غير قصد، ومن الخطأ على وجه العموم أن ننسب إلى النبي أفعالاً اتفاقيه لا إرادية؛ لأن كل ما يصدر عنه إنما هو بقصد التشريع، وكل حياته وأفعاله أعدت لتكون تشريعاً

(١) مسلم شرح النووي، ج ٤، ٧٩٠.

(٢) تلبس إبليس، ١٩٤.

للأمة يقتدى بها.

ولو صح ما قاله القسطلاني في إرشاد الساري إنه كيفما وجد لبس للبس الرسول الحرير لأنه وجده وأهدي إليه ثم رفض أن يلبسه وحرمه، وكثيراً ما نزع أثواباً أخرى شغلته عن الصلاة.

(ج) ومما يزيد الأمر وضوحاً وبيئاً ما نرى من تفضيل كثير من الصحابة كأبي ذر الذي كان يلبس أحسن الثياب<sup>(١)</sup>. وكمصعب الذي تمنطق بإهاب كبش، ووصف أبو هريرة وفضالة بعض الصحابة بأنهم كانوا يخرجون من الجوع حتى تحسبهم الأعراب مجانين، وكان لباسهم الصوف حتى إن بعضهم كان يعرق في ثوبه فيوجد منه رائحة الضأن إذا أصابه الغيث<sup>(٢)</sup>.

وقيل هذا عن أهل الصفة بنوع خاص، وقال الحسن البصري: قابلت سبعين بدرياً لباسهم الصوف.

وتطبيقاً لروح ونص الأحاديث السابقة دعا عمر الناس عندما رأى ميولهم نحو الرقيق والناعم قائلاً: احشوشنوا، احشوشنوا وإياكم وزبي العجم كسرى وقيصر<sup>(٣)</sup>. وقال رافع بن خديج، عن بشر بن مروان وهو يخطب على منبر الكوفة أثناء ولايته عليها: انظروا إلى أميركم يعظ الناس وعليه ثياب الفساق، وكان عليه ثياب رقاق.

فقد اعتبر رافع الثوب الرقيق ثوب فسق، وعلق ابن عباس على قوله

(١) النووي على مسلم، ج ٣، ٢٠٢.

(٢) عوارف المعارف، ٦٤.

(٣) الغزالي، الإحياء، ج ٤، ٢٠٢.

سبحانه: «وَلَا تَبْرَجْنَ تَبْرَجَ الْجَهْلِيَّةُ الْأُولَى» [الأحزاب: ٣٣]. بأن المراد النهي عن لبس ما رق من الثياب، والحث على لبس الغليظ الذي هو الصوف غالباً، وتدلنا تلك النصوص على أن الصحابة فرادى وجماعات قادرين وعاجزين لبسوا الصوف والخشن حتى صح للإمام النووي قوله فيه ما كانت الصحابة رضي الله عنهم عليه من الزهد في الدنيا والتقلل منها، وإطراح فضولها، وعدم الاهتمام بفاخر اللباس ونحوه<sup>(١)</sup>.

(د) ولفضيلة لبس الصوف توارثه التابعون وتابعوهم من الزهاد، فلبسه أويس القرني، وسالم بن عبد الله بن عمر، وعمر بن عبد العزيز، وسعيد بن المسيب، وجعفر الصادق، وعبد الله بن عون، ومالك بن دينار، ومحمد بن سيرين، ومطرف بن عبد الله، وفرقد السنجي، ومحمد بن واسع، وإسماعيل بن عبيد الأنصاري، وعتبة بن الغلام، والأعمش، والشعي، وسفيان الثوري، وإبراهيم بن أدهم، وشعبة بن الحجاج<sup>(٢)</sup>، وغير هؤلاء من رجال السلف سواء كانوا من فضيلة الزهاد أهل النسك، أو من فضيلة الزهاد أهل العلم الظاهر، أو من فضيلة زهاد الساسة كجعفر المنصوري الذي كانت تُخالطه أمة الملوك بزي النسك.

أي إن هذا الزي عرف للزهاد والنسك بصرف النظر عن سماهم العلمية والاجتماعية قبل أن يصبح شعاراً للتصوف والصوفية، وبهذا اعترف المكّي

(١) النووي على مسلم، ج ٢، ٥٨٧.

(٢) انظر: طبقات الشعرا ج ١، ٢٤، ٣٢، ٢٦، ٤٠، ٤٩، ووفيات الأعيان، ج ٢، ٩٤،

١١٧، ٤٩، وتاريخ بغداد، ج ٩، ٦، ج ١٠، ٩٤، وكشف المحجوب ج ١، ٢٤٢،

وطبقات ابن سعد، ج ٦، ١٧٦، ١٧٧، ج ٧، ١٣٨، والحلية، ج ٤، ٢٠٠، ورياض

النفوس، ج ١، ٧٠، عند الحديث عن تراجم من ذكرنا.

والسهروردي، وإن كنا نأخذ على المكي أنه عمم الحكم باللبس على السلف مع أنه على جهة الغلبة لا العموم كما سنبين.

(هـ) وإذا ما وصلنا إلى الصوفية وجدنا بشر بن الحارث الحافي (٢٢٦هـ) يلبس فروة رثة المنظر، وأحمد بن إبراهيم يشتهر بالمسوحى هو وعلي بن حسن للبسهما المسوح، والحسين بن منصور الحلاج (٣٠٩هـ) يتنقل بين زي العلماء وبين المسوح والخرق.

وقدم محمد بن أحمد الشيرازي (٣٥٣هـ) بغداد، وأقام بها مدة يتكلم على الناس بالوعظ على طريقة الزهد ويلبس المرقعة، وارتدى سيدي عبد القادر الجيلاني (٥٦١هـ) حبة من صوف، وأطلق سيدي أحمد الرفاعي (٥٧٠هـ)، على هذا الثياب حلية الأولياء وزى العارفين، وأجله سيدي إبراهيم الدسوقي (٦٧٦هـ) بشروطه اللائقة به ظاهراً وباطناً<sup>(١)</sup>. فأحسن ما تلبس هذه الطائفة الصوف<sup>(٢)</sup>

(و) وإتما فضل هذا الزي على غيره لأنه علامة التواضع، وشارة الخمول، والذبول والانكسار كما يقول عمر في رثاء النبي ﷺ، فلقد والله جالستنا ونكحت إلينا، وواكلتنا، ولبست الصوف وركبت الحمار، وأردفت خلفك ووضعت طعامك على الأرض، ولعقت أصابعك تواضعاً منك<sup>(٣)</sup>.

أي: إنما فعلت ما فعلت لا عجزاً ولا قصوراً عن التمتع ولبس الجيد الرقيق،

(١) اللمع، ٢٤٨، وتاريخ بغداد، ج ٧، ٧١، ج ١، ٣٥٩، ج ٤، ١٢، ج ٨، ١١٢،

وطبقات الشعرا، ج ١، ١٠٨، ١٢١.

(٢) الغزالي، منهاج العارفين، ٩٥-٩٦.

(٣) الغزالي، الإحياء، ج ١، ٣٢٠.

ولكن حباً في التواضع وإيثاراً للزهادة، واقتصاراً على ما ستر العورة، ولم يشغل عن الآخرة ونعيمها.

وثياب الصوف هو الزي الذي يتناسب مع التقلل والتخشن والافتقار، وقد عرفه العرب لتلك الحالة سواء لجأ إليها صاحبها بإرادة واختيار ابتغاء مرضاة الله كما يفعل الزهاد والصوفية، أم باختيار بغية جمع المال كما لبسه أبو عمرو الخفاف لهذا الغرض وللاكتناز<sup>(١)</sup>، ولذا عده الثعالبي من الكنايات لدلالته على لازم له، أم ألبأته إلى لبسه صروف الدهر وتقلباته كما قال أبو تمام:

كانوا يرود زمانهم فتصدعوا فكأنما لبس الزمان الصوف<sup>(٢)</sup>  
فجعل لبس الصوف حال الضعف في مقابل لبس البرود وما رق حال القوة.

وبجانب هذه العلل فتوب الصوف قليل الثمن يرخص ويسهل شراؤه على المتقللين والمتجردين، ويتحمل أسفار السائحين من الزهاد والصوفية، فلا عجب مع هذه الدواعي أن يفصح شاب أمام بشر الحافي قائلاً: الحمد لله الذي جعلنا ممن يعرف به، ويكرم له والله لنظهرن هذا الثوب حتى يكون الدين كله لله، فقال له بشر: أحسنت يا غلام مثلك من يلبس المرقعة<sup>(٣)</sup>.

فحمد الله على لبسه، والمعرفة به، وقسم الشاب على إظهاره حتى يظهر الله أمر الدين إعلاماً لا عن ظاهر اللبسة ولكن عن باطنها وأسرارها، وإفصاحاً عما في القلب، وعما انطوت عليه النفس من صفو ومجاهدة، وعما أكنت من تواضع وورع وزهد وعفة ورضا وغير ذلك من الفضائل الإسلامية التي كان

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج ١، ٢٥١.

(٢) التصوف الإسلامي، لزكي مبارك، ٥٦.

(٣) اللمع، ٢٤٨.

الثياب علامة على صدق المخلصين ممن تزيوا به، والجهاد والإصرار على إبراز هذا الثوب ليس منصباً على خيوطه البادية إنما على فضائله المستكنة تحت الأديم الذي يحمل هذا الثوب.

(ز) ومن كل ما ورد في القرآن والحديث وفي أقوال الصحابة يتضح أن الزهاد والصفوية قلدوا نبيهم صلوات الله عليه في اللبس، ولم يصدروا في زيهم عن تأثير مسيحي أو رهباني، وأنهم اقتدوا بالصحابة من المسلمين لا بالتقاليد المسيحية خلافاً لما ذهب إليه ماسنيون الذي ادّعى أن هذا الرأي نصراني دخيل<sup>(١)</sup>. ووافقه على ذلك فيليب حتى ونولدكه<sup>(٢)</sup>.

وسايرهم في هذا الاتجاه الدكتور زكي مبارك من الباحثين الإسلاميين مبيناً أن لبس المسبوح كان معروفاً بين الجاهليين، وقد لبسه أمية بن أبي الصلت تعبداً شأنه في ذلك شأن النصراني الذي يلبسه حين يتنسك، والنتيجة التي خرج بها حيناً أن هذا الزي تقليد للرهبان النصارى<sup>(٣)</sup>.

ولعل الذي دفع الغربيين والشرقيين إلى هذا الزعم هو ما جاء على لسان حماد بن أبي سليمان حين قدم البصرة فجاهه فرقد السنجي وعليه ثوب من صوف فقال له حماد: ضع عنك نصرانيتك هذه<sup>(٤)</sup>.

وقال أبو العالية المسمى برفيع المتوفى (٩٠هـ) لأبي أمية الذي كان يرتدي

(١) دائرة المعارف الإسلامية، ج ٩.

(٢) فيليب حتى: الإسلام منهج حياة، ١٢٣، نيكلسون: الصوفية في الإسلام ترجمة شريفة، ٣-٤.

(٣) زكي مبارك، التصوف الإسلامي، ٦٣-٦٥.

(٤) تلبس إبليس، ١٩٥.

هذا الثوب: هذا زي الرهبان إن المسلمين إذا تراوروا تحملوا<sup>(١)</sup>.

ولكننا استناداً إلى ما سبق من نصوص في الفقرات الست الأولى نقر بأن الصوف نسيج مشترك للبشرية كلها، يليسه من يشاء من أي دين أو أية نخلة، والرسول حين لبسه إنما استخدم نعمة ساقها الله في الكتاب الذي أنزله عليه، ولما رأى في الصوف من تناسب مع حال التقشف والتقلل، وليس لمدع أن يزعم أن الرسول قلد أحداً في ذلك.

وعندما يرتديه الزهاد والصفوية فهم على وجه يقيني يتبعون رسول الإسلام لإعلانهم المستمر أن نبيهم أحب إليهم في الاقتداء كما جاء على لسان محمد بن سيرين<sup>(٢)</sup>. وكان في مقاماته وأحواله ومذاقاته الإنسان الكامل الذي حاولوا التشبه به، والسير على سنته رجاء أن ينالوا بعض ما نال.

فمن العتب بعد كل ما سبق أن يتجاهل المستشرقون فوق هذه النصوص الكثيرة لينسبوا الزي إلى المسيحية، كما أن الدكتور زكي مبارك قد تناقض أشد التناقض مع الشواهد السابقة ومع نفسه، ذلك عندما قرر النتيجة سالفة الذكر، وعلى كل فإن الرجل قد أراحنا من الرد عليه حينما نقض تلك النتيجة بقوله بعدها: (أقول هذا ولا أجزم بأن في لبس الصوف رجعة إلى التقاليد المسيحية ولكن القارئ عرف أن النبي ﷺ كان يستحب لبس الصوف تواضعاً)<sup>(٣)</sup>. وبهذا عاد إلى رأينا، أو لم يستطع الوقوف على حكم معين، أو لم يستتب الوجهة الصحيحة.

(١) الحلية، ج ٢، ٢١٧.

(٢) محاضرات الأصفهاني ج ٤، ١٢٢، نقلاً عن التصوف الإسلامي لزكي مبارك.

(٣) التصوف الإسلامي، ٦٣ - ٦٥.

وأما حماد بن أبي سليمان وأبو العالية فيمكن أن نحمل عبارتهما على أنهما تمثلان وجهة النظر الثانية التي ترى أنه ينبغي على المسلم أن يرتدي الثياب الحسن إظهاراً لنعمة الله وهي التي سنتحدث عنها الآن.

### الوجهة الثانية

ويجب ألا يغيب عن أذهاننا أنه قد امتنع بعض الزهاد الصوفية عن استعمال الصوف، ولبسوا الخبز أو الكتان وتجميلوا بفاخر الثياب كبكر بن عبد الله المزني الزاهد التابعي، وعروة بن الزبير، والقاسم بن محمد بن أبي بكر، وعبيد الله بن عمر الذي كان يتكئ عليه أبوه ويحس بنعومة ثوبه فلا ينكر عليه، وخارجة بن زيد ومحمد بن سيرين، ولبس الإمام أبو حنيفة جيد الثياب، وارتدى الإمام مالك اللباس العدنية الجياد، وأحب الإمام أحمد الثياب البيضاء، كما أحبها تميم الداري وبشر بن الحارث.

ولبس أبو سليمان الداراني الصوفي (٢١٥هـ) قميصاً أبيض، واكتسى أبو حفص عمر بن سالم النيسابوري (٢٧٠هـ) قميصاً من خز وثياباً فاخرة، وكان له بيت فرشه بالرميل، وأعرض أبو الحسن الشاذلي، والمرسي أبو العباس عن الصوف والمرقعَات<sup>(١)</sup>.

وقد استدل هؤلاء بقوله سبحانه: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ خُدُوْا زِيْنَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوْا وَاشْرَبُوْا وَلَا تُسْرِفُوْا ۗ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِيْنَ ۗ﴾ قُلْ مَنْ

(١) انظر في هذه الحلية: ج ٢، ٢٢٧، ١٨٥، ج ٣، ٤٧، وطبقات ابن سعد، ج ٥، ١٣٤، ١٣٩، ١٩٤، واللمع ٢٤٩، ٢٤٨، طبقات الشعرائي ج ١، ٤٥، ج ٢، ١٦، وتلييس إبليس ١٩٩، والقرطبي ٢٦٣٢-٢٦٣٣، ابن كثير ج ٤، ٥١٠، والنسفي ج ٢، ٥٠-٥١، ولطائف الإشارات ج ٢، ٢٢٢-٢٢٤.

حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ  
ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ تَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ  
يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ [الأعراف: ٣٢-٣٣].

وقال جل ثناؤه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَيبًا تَقِيكُمْ أَنْحَرًا﴾ [النحل: ٨١].

وفهم كل من الطبري، وأبي الفرج الجذري، وأبو القاسم الطبري، وابن كثير،  
والنسفي<sup>(١)</sup> أن هذه الآيات تبيح التنعم بجميع أنواع اللباس بشرط الاقتصاد ونقاء  
القلب من الكبر والرياء، وتأمّر الإنسان أن يظهر نعم الله عليه حيث يُحب  
الله ذلك من عبده، ولا يكون في هذا الإظهار أو في تجويد الثياب هوى  
النفس حتّى تدم عليه؛ لأنه ليس كل ما تمواه النفس يدم، ولا كل ما يتزين به  
للناس يكره، وإنما يدم إذا كان الشرع قد نهى عنه، أما إذا كان قد أباحه فلا  
يلام فاعله.

وتحدثنا آيات الأعراف والنحل أن الله سبحانه أباح التزين بثياب القطن  
والكتان والصوف، وجعل لهم ما يقيهم من قسوة الطبيعة في حرها وبردها  
ونهارها وليلها، فلا حرج إذن على الإنسان حينما يستخدم ما أنعم الله به  
عليه، ولا بد من إضافة الزينة الباطنة مع الزينة الظاهرة عند القشيري.

وكذلك استدل أنصار هذا الرأي بما روي عن رسول الله أنه لبس بردين  
أخضرين، وارتدى حلة حمراء، وأهدت إليه بردة فلما لبسها جسها أحد الصحابة  
ثم طلبها منه فلفها له الرسول صلوات الله عليه وأرسلها له<sup>(٢)</sup>، وبجانب

(١) نفس المرجع السابق.

(٢) التاج، ج ٣، ١٥١-١٥٤-١٥٥. عن أصحاب السنن وعن البخاري والنسائي، وانظر

البخاري، ج ٧، ٢١٤.

لبسه حث رجلاً كشف الهيئة صاحب مال على تحسين هيئته قائلاً له: «فإذا أتاك الله مالاً فلير عليك». وقال لآخر يرتدي ثياباً غير نظيفة: «أما كان يجد هذا ما يغسل به ثوبه». وسأله صحابي عن حسن الثياب وهل هو من الكبر فقال: «إن الله جميل يُحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس»<sup>(١)</sup>.

وأحسن ما يكون التجمل في الجمع والأعياد، وعند لقاء الناس ومزاراة الإخوان، وعند دخول المساجد والوقوف بين يدي الله في الصلاة.

ودعونا الآن نتبين الحقيقة من وراء هاتين النظرتين تلکم الحقيقة التي تتراءى أمام عيوننا وبصائرنا إذا ما درسنا المسألة في سياق العلم بنظرة الإسلام الشاملة التي تشرع للبصر عمومًا، وفيهم الفقير الصادق الذي يناسب حاله مع التقليل والتخشن، والثري المخلص الذي يستطيع التزين بشروطه من غير كبر ولا إسراف.

كما أن في كل من الفريقين مدعين ومرائين، فإذا لبس الرسول صلوات الله عليه الصوف والغليظ وحث عليه فليقتدى به الفقراء الصادقون، وإذا حث على التزين والتجميل فلکي يفسح المجال أمام الأثرياء، والأقوياء الذين يقدرون على ضبط نفوسهم ومجاهدتها مع جيد الثياب وحسنه.

ومن المعلوم أن النبي دعا إلى النظافة ولو مع الثوب المرقع، ومن أجلها سمح لصحابي عانى من القمل أن يغتسل وهو مُحرم، كما أنه حارب الادعاء والربا على أي شكل من أشكاله ومع أي من الفقير أو الغني، وإذا نهى عن كشف الثوب والهيئة فللمبالغة في عدم النظافة، أو بدا للنبي من حال الرجل رث الهيئة أنه فعل ذلك بُخلًا واكتنازًا لا زهدًا وتواضعًا، أو أنه وصل في رثائه إلى حال لا

(١) تلبس إبليس، ٢٠٢، انفراد به مسلم.

يليق بمسلم، ولا يتفق مع الطهارة التي يحبها الله ويحب أربابها.

وإذا زهد في الثوب، ورغب في التقليل، ودعا إلى البذاذة التي لا تصل بالإنسان إلى حد التقزز والنفور منه فليقطع على المرائين والمباهين الطريق الذي يودي بصفاء القلب والنفس.

وبهذه اللمحة الإجمالية يبدو الإسلام شاملاً يراعي الجوانب البشرية على اختلاف ميولها الخيرة، ويحرص على تلبية التزعات البارة، أما الشهوات الجانحة فموقفه منها موقف المعالج والمداوي والحريص على الشفاء لنفوس الإنسانية عامة.

وَالَّذِينَ يَقْتَصِرُونَ عَلَى وَجْهَةٍ نَظَرٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْخِشْنِ أَوْ النَّاعِمِ قَدْ قَصَرُوا عَنْ فَهْمِ هَدَفِ الْإِسْلَامِ الَّذِي شَرَعَ تَشْرِيْعًا فَسِيْحًا وَعَامِلَ كُلِّ نَفْسٍ حَسْبِمَا انْظَرَتْ عَلَيْهِ وَاتَّجَهَتْ نَحْوَهُ، وَتَلْكَ دَرَاْسَةٌ إِجْمَالِيَّةٌ لَوْجْهَتِي النَّظَرِ فِي الثِّيَابِ أَمَا الْوَقْفَاتُ التَّفْصِيْلِيَّةُ الَّتِي نَخْرُجُ مِنْهَا بِالتَّوْفِيقِ بَيْنَ النَّظَرَيْنِ فَيُمْكِنُ أَنْ نَوْضِحَهَا فِيمَا يَلِي:

(أ) إنه بالنظر في آية الأعراف السابقة نجد أنها نزلت قطعاً لعادة القبائل العربية التي كانت تطوف بالبيت عريانة إلا الأحمس وهم قريش، ثم قطع النظر عن السبب الخاص الذي نزلت الآية فيه، وعممت في كل المساجد وفي الصلاة<sup>(١)</sup>.

ولذا قال الفخر الرازي: فوجب حمل هذه الزينة على ستر العورة<sup>(٢)</sup>. وقال: وأجمع المفسرون على أن المراد بالزينة ههنا لبس الثوب الذي يستر العورة.

(١) تفسير القرطبي، ٢٦٢٥.

(٢) تفسير الفخر الرازي، ج ٤، ١٩٨-٢٠٠، والقرطبي ٢٦٢٥، وأبي السعود هامش

الفخر، ج ٤، ٣٥-٣٦.

وبالتالي فالأمر هنا للوجوب لا للإباحة، وبنحوه ذهب القرطبي وأبو السعود في تفسيرهما.

ويعتبر هذا الفهم قصراً للزينة على ما ستر العورة لا ما تجمل به العبد في ثوبه، وهو لا يفيد الحث على الرقيق فحسب لأن سترة العورة شامل لما غلظ ورق، وكذلك مال الفخر الرازي إلى أن الزينة بمعنى الجيد من الثياب لا تخلص للمؤمن إلا في الآخرة أما في الدنيا فإنها مكدرة مشوبة.

وبجانب هذا فإن القرطبي قد اشترط لتنوع الثياب المستفاد من آيات سورة النحل أن يكون العبد قادراً على شرائها واستعمالها، وبتأني على هذا المفهوم فإن الأمر في آيات الأعراف شامل للرقيق والغليظ ما دام كل منهما يستر العورة، ولا يخلو الرقيق من كدر، وقد لا يستطيعه جُلُّ البشر، ومن هنا فإن الغليظ والحشن في العصور السالفة كان أيسر شراءً، وأقل ثمنًا، وأستر للعورة، وتطبيقه الأكثرية من الآدميين وتقل الشهرة والتفاخر معه كما يتوقى به من إثارة الهوى والغرور في نفس الإنسان.

فلا عجب أن ثبت كثير من العلماء أن لبس الصوف كان غالباً على رجال السلف، والحكم بالغلبة كان في التفضيل، بالإضافة إلى أن الأكثرية التي عارضت لبس الصوف من رجال الظاهر والأقلية التي امتنعت عن لبسه من أرباب الباطن كانوا قادرين ذوي ملك واستطاعة، أما الجمهرة من رجال الصوفية الذين تحشّنوا ولبسوا الصوف أو المرقعات فكانوا في الغالب من المتجردين أو السائحين، ومن يتناسب حالهم مع لبس الصوف لرخصه وتحمله وستره.

(ب) هذه واحدة بالنظر إلى المفهوم في الآيات التي حملت الدعوة إلى لبس الحسّن الرقيق، ونأتي إلى وقفة مع غايات اللبس ومراميه الباطنة فنرى أن

المسلمين عامة والمشتغلين بالحياة الروحية خاصة قد اعتدوا في اللبس بالصدق، وصفاء النفس، وتوجه القلب إلى الله، والخلو من الشهوات الجارفة، وعندما يتحقق هذا في نفوس القاصدين فلا لوم على لابس ما طالما أنه يخضع للحدود الشرعية المقررة.

ولتوافر هذه الشروط لدى الصحابة وفي عمق نفوسهم كانوا كما قال بكر بن عبد الله: لا يطعن الذين يلبسون على الذين لا يلبسون، والذين لا يلبسون لا يطعنون على الذين يلبسون<sup>(١)</sup>. أي: لا يعيب صاحب الخبز على صاحب الصوف، ولا صاحب الصوف يعيب على صاحب الخبز<sup>(٢)</sup>، على حد تفسير مالك بن دينار.

وقد عبر سعيد بن المسيب عن تلك الغاية في عبارة وجيزة إذ قال: أصلح قلبك والبس ما شئت<sup>(٣)</sup>. وهذه العبارة مع ما سبقها يفتح علينا باب المناقشة الجادة في أصل هذا الموضوع، ويثير في أذهاننا المغزى الرئيسي الذي بنى عليه رجال الطريق نظرهم إلى اللبس سواء ما رق أو ما خشن، خصوصاً إذا ما علمنا أن تلك المشكلة ما كان لها أن تظهر لو سار المسلمون على ما كان عليه الصحابة، ومن سلك مسلكهم أو شرب مشربهم من التابعين وتابعيهم.

ولكن لما وجدت البدع وحدث التغير في القلوب، وتستر ضعاف الدين وراء لبس الزهاد ومن بعدهم الصوفية اندفع رجال الحركة الروحية يُحاربون المدعين بين صفوفهم من ناحية ويركزون على بواطن وقلوب السالكين من ناحية

(١) الحلية، ج ٢، ٢٢٧.

(٢) طبقات الشعرائي، ج ١، ٣٢.

(٣) الحلية، ج ٢، ١٧٣.

أخرى، ويعلنون على الملأ أنهم ليسوا طلاب رسم ولا دعاة زي إنما هم قصاد حقيقة، وباحثون عن معان لا قوالب، وعلى المريدين أن يُدركوا أن العبرة ليست بالشارة، ولا بالحرقة ولا بالخشونة، وإنما القصد هو تصفية النفس، وجلاء القلب حتّى تزول عن عين البصيرة الغشاوة لترى أنوار الحق بالمكاشفة.

كما أنّها من باب أولى ليست بالنعومة أو الرقة وإنّما المطلوب رقة القلب وشفافية الروح التي تواصل العروج إلى حظائر القدوس، وباختصار أرادوا أن يعودوا إلى حالة الصفاء وعدم اللوم في اللبس كما كان عليه المسلمون في عصر الصحابة.

(ج) واقتضتهم تلك الغاية أن يوجهوا اللوم الشديد على كل لون من ألوان الثياب ما دام صاحبه لا يحترم صفاء الباطن، ولا يتوجه بكليته إلى تجلية نفسه، أو يُشتم مما يرتديه تصنعاً أو ادعاء حتّى ولو كان الثوب هو اللباس الأبيض الذي ورد أن النبي ﷺ فضله على ألوان الثياب عامة<sup>(١)</sup>.

ومن أقدم النصوص التي هاجمت الثوب الأبيض قول أبي عبيدة بن الجراح: ألا رب مبيض لثيابه مدنس لدينه، ألا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين<sup>(٢)</sup>.

ولما كانت دواعي الرياء في الدين مع لبس الرقيق أقل منها مع لبس الصوف نظراً لارتباط زي الصوف بحالة النسك، وإقبال الأكثرية عليه، وبارتدائه يحصل للعبد الشهرة بالصلاح، ويمكن أن يثق الناس فيه وبالتالي يحصل بعض أرباب المطامع على منافع لهم من جرائه لذا كان المحجوم على من ارتداه للتستر أشد وأقوى، وعلاوة على المحجوم فإن الادعاء جعل رجال الطريق يعدلون عن لبس

(١) البخاري ومسلم في باب الفضائل وأصحاب السنن، التاج، ج ٣، ١٥٤ - ١٥٥.

(٢) طبقات الشعرائن، ج ١، ١٩.

الصوف إلى غيره كالحسن البصري ومالك بن دينار، وابن عون، وسفيان الثوري، وابن أدهم، والشاهد على ذلك أن أحد المدعين قدم على البصري وهو يرتدي جبة صوف وعمامة ورداء من صوف فلما جلس عنده جعل موضع بصره في الأرض لا يرفعه، وكان الحسن خال فيه العجب فقال له: ها إن قومًا جعلوا كبرهم في صدورهم شنعوا والله دينهم بهذا الصوف<sup>(١)</sup>. وكانت تلك الحادثة بلا ريب مثار فكر الحسن وانتباهه إلى شناعة مثل هذا السلوك، وإلى مقدار ما يلحق الطريق من إهانة بسبب هؤلاء، ولذا لم يدخر جهدًا في حرهم معلنًا أنهم أكنوا الكبر في قلوبهم، وأظهروا التواضع في لباسهم، والله لأحدهم أشد عجبًا بكسائه من صاحب المطرف بمطرفه<sup>(٢)</sup>.

وقال لفرقد السبخي مع صدق هذا الزاهد وإخلاصه: يا فريقد يا بن أم فريقد إن البر ليس في هذا الكساء، وإنما البر ما قر في الصدر وصدق العمل<sup>(٣)</sup>. أي إن الهجوم تجاوز المدعين إلى الصادقين درءًا للشبه، وقطعًا للمفاسد، وسدًا لأبواب الرياء.

وتوالى الهجوم الشديد بعد الحسن البصري على المظهر والرسم، واهتموا بالقلب مثلما جاء على لسان أبي الحسن بن يسار لأبي محمد ابن أخي معروف الكرخي، قال له أبو الحسن: يا أبا محمد صوّف قلبك، أو جسمك واللبس القوهي على القوهي<sup>(٤)</sup>.

وحكم يحيى بن معين الرازي (٢٥٨هـ) بأن لبسه مع بقاء النفس بشهواتها

(١) تلبس إبليس، ١٩٥.

(٢) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج ٢، ٣٧٢.

(٣) تفسير القرطبي، ٢٦٣٢.

(٤) نفس المرجع السابق.

جهالة<sup>(١)</sup>. وإذا كَانَ ضوء الفقير في ثوبه فلا يُرجى خيره كما هو عند أبي حفص الحداد (٢٧٠هـ)، ويتخسر أبو الحسين النوري (٢٩٥هـ) فيقول: كانت المرقعات غطاء على الدر فصارت جيفاً على المزابل<sup>(٢)</sup>. وما زينوا الظواهر إلا بعد أن خربوا البواطن على حد تعبير محمد بن عبد الخالق من صوفية القرن الرابع الهجري.

ورأى الشبلي جماعة من أصحابه بالمسجد عليهم المرقعات والقوط فأنشأ يقول:

أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحي غير نساته<sup>(٣)</sup>  
والمهم عند القطب الرفاعي والقطب الدسوقي أن يسلك صاحب الصوف أو المرقعة بهذا الزي مسالك المقربين، وأن يخلص في جوانيته، وفي عمله كله ويحترم بحزم إيمانه لأن القوم إنما عملهم جواني<sup>(٤)</sup>، ونستنتج بعد كل هذا أن حب الظهور برسم وسمت الصالحين مع فساد النوايا ظهر بعد مدة من الزمن مضت على انتقال رسول الله ﷺ ظل فيها المخلصون يرتدون بأكثرية ثياب الصوف وبأقلية غيره، وحالهم الزهد والتواضع والصدق والإخلاص، ثم حدث الفساد، وأعقبه المحجوم على الظاهر من الزي بغية إصلاح القلوب.

ولم يكن المحجوم على لبس الصوف في حد ذاته كزي بل على سوء استخدامه وقبح الغاية التي يلبسه من أجلها المرءون، وهذا لا يضير من لبسه بصدق وإخلاص، كما أن الحملة الشديدة والمركزة على المنتسبين والمدعين

(١) طبقات ابن الشعرائي، ج ١، ٧٠.

(٢) تلبس إبليس، ١٨٦.

(٣) تفسير القرطبي ٢٦٣٢.

(٤) طبقات الشعرائي، ج ١، ١٢١، ١٥٢.

والمستترين وراء الزي تدلنا على أنه اشتهر زي للنسك وإلا ما تستر به أهل الرياء، ومن الجدير بالذكر هنا أن أبا الفرج الجوزي في نقده اللاذع لمرتدي الصوف كَانَ يسلك المسلك الصوفي الَّذِي يتتقد المرائين لا المخلصين، ويوجه تعنيفه للمتشبهين الَّذين لا يَخفى تصنعهم إلا على كل غبي<sup>(١)</sup>.

أما المتقدمون والصادقون فقد حسنوا الصورة والمعنى عنده، ويتفق مع كل من أبي سليمان الداراني (٢١٥هـ) وأبي القاسم الجنيد (٢٩٧هـ)، ومحمد بن علي الكتاني (٣٢٢هـ) على ضرورة الموازنة والتوافق بين ما في داخل العبد وما يرتديه على ظاهره، فلا تغلب شهرته في قوتها ما على بدنه من ثوب ولا يرق لبسه عن قلبه<sup>(٢)</sup>.

وإلى هذا المحجوم على أثواب الشهرة جاءت الأحاديث تؤيده فيقول الرسول ﷺ: «من لبس ثوب شهرة ألبسه الله يوم القيامة ثوباً مثله ثم تلهب فيه النار»، وفي رواية: «من لبس ثوب شهرة أعرض الله عنه حتى يضعه»، أو «ألبسه الله ثوب المذلة يوم القيامة»، سواء كَانَ الثوب رقيقاً أو غليظاً كما صرح به الرسول في رواية أبي هريرة وزيد بن ثابت حين نهي عن الشهرتين قيل يا رسول الله وما الشهرتان؟ قَالَ: «رقة الثياب وغلظها ولينها وخشونتها وطولها وقصرها، ولكن سداد بين ذَلِكَ واقتصاد»<sup>(٣)</sup>.

وتطبيقاً لما قلناه من ارتداء الغالبية للصوف عند الصدق وهجومهم عليه عند الشهرة ولما سمعناه من أحاديث رسول الله في لبسه وفي ذمه عند الشهرة نرى

(١) تلبس إبليس، ١٨٩.

(٢) ارجع إلى طبقات الشعرا، ج ١، ٦٨، وعين العلم وزين الحلم، ٥١، وتلبس إبليس ١٩٦ - ١٩٨.

(٣) انظر: التاج، ج ٣، ١٥٤، عن رواية أبي داود والنسائي، وتلبس إبليس ١٩٢ - ١٩٣.

أن الصوفية تابعوا نصوص الإسلام لفظاً وروحاً وطبقوها تطبيقاً واعياً.

(د) وبعد كل ما قيل في فضله وأنه كَانَ زي غالبية السلف، وأن المهجوم قد انصب على المرائين فليس هناك ما يمنع من أن يصبح هذا الزي متعارفاً عليه بين غالبية العباد والنسك والزهاد، ثم يصير زياً اصطلاحياً عند جميع الصوفية وإن ارتداه معظمهم فقط، خاصة إذا تأكدنا أنه كَانَ لكل جماعة وهيئة وقوم زي معين.

فالكاهن مثلاً لا يلبس المصبغ، والعراف لا يدع تذييل قميصه وسحب رداءه والحكم لا يفارق الوبر وللحرائر زي وللملوك زي ولذوات الرايات زي، وَكَانَ فرسان العرب في المناسبات والأسواق يتقنعون كعادة لهم، وقد يتخذ الواحد منهم علامة تميزه في حادثة بعينها كما اتخذ حمزة في بدر ريشة نعامة سوداء وتعمم الزبير بعمامة صفراء، وَكَانَ مصعب يتعمم العقداء، ولكل من الخلفاء والفقهاء والبالغين والأعرابي والرومي والنصراني عمامة تُخصه وتميز عن عمامة غيره<sup>(١)</sup>.

واتخذت الدولة الأموية زي الحرير شارة لها<sup>(٢)</sup>، كما اتخذت الدولة العباسية لبس السواد زياً خاصاً بها<sup>(٣)</sup>، إلى أن يقول محمد بن سعد بن أبي وقاص:

فأبد سيماك يعرفون كما يبدون سيماهم فتعرف<sup>(٤)</sup>  
ويقول الجاحظ: لكل قوم زي فللقضاة زي، ولأصحاب القضاة زي،

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، ج ٣، ٥٥، ٥٧، ٦٤، ٦٥، ٦٧.

(٢) مروج الذهب، ج ٢، ٦٠٩-٦١١.

(٣) تاريخ بغداد، ج ١٠، ١٥٥.

(٤) البيان والتبيين.

وللشرطي زي، وللكتاب زي، ولكتاب الجند زي<sup>(١)</sup>.

وللصوفي كذلك، فلا عجب والحالة هذه أن يتميز الزهاد ثم الصوفية بزي خاص بهم كما قال ابن خلدون وهم: في الغالب مختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب<sup>(٢)</sup>. وقوله: (في الغالب) ينم عن الدقة وحسن التحري، وإطلاق ما غلب على المجموع ذائع ومعروف.

(١) نفس المرجع السابق.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ٣٩٨.